

كُنْزٌ مِّنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ



لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ
كَلِمَةُ الْعَاجِزِ وَقُوَّةُ الْمُؤْمِنِ

تَأْلِيف: رَدَّادُ السَّلَامِيِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(لا قوة إلا بالله)

إهداء

إلى الذين أثقلتهم الحياة حتى لم يعودوا يعرفون بأية يد يحملونها...

إلى من استنفدوا حيلتهم، وطرقوا الأبواب، وبذلوا ما يستطيعون، ثم وقفوا أمام أقدارهم لا يملكون تقديمًا ولا تأخيرًا...

إلى كل قلب ظن أن عجزه نهاية الطريق، ولم يعلم أن العجز إذا قاده إلى الله كان بداية النجاة...

هذه الصفحات لتقول لك:

لست مطالبًا بأن تكون قويًا وحدك؛ فحسبك أن تعرف من تستمد منه القوة، وأن تقول بقلبك قبل لسانك: لا حول ولا قوة إلا بالله.

الكلمة التي تأتي حين تنفذ الكلمات

ثمة لحظات لا تنفع فيها كثرة الكلام. لحظات يقف فيها الإنسان أمام أمر أكبر من قدرته، وأثقل من احتماله، وأبعد من أن تتاله حيلته. يرى الطريق، لكنه لا يملك القوة على قطعه؛ ويعرف الصواب، لكنه يجد في نفسه ضعفًا عن اتباعه؛ ويرجو أمرًا طال انتظاره، ولا يملك أن يعجل مجيئه لحظة واحدة.

في تلك اللحظات تساقط الكلمات التي كان الإنسان يحتجئ خلفها، وتسقط معها أوهام السيطرة. يكتشف أن معرفته، مهما اتسعت، لا تحيط بالغيب، وأن قوته، مهما بدت عظيمة، لا تضمن له نبضة قادمة، وأن الأسباب التي اطمأن إليها قد تعمل اليوم ثم تتعطل غداً. وهنا تأتي كلمة عظيمة، قليلة الحروف، واسعة المعنى: لا حول ولا قوة إلا بالله.

ليست كلمة يقولها المهزوم ليبرر انكساره، ولا عبارة يردددها العاجز كي يتخفف من مسؤوليته. إنها كلمة يقولها العارف بربه حين يعرف قدر نفسه؛ يأخذ بالأسباب دون أن يعبدها، ويجتهد دون أن يغتر بجتهاده، ويمضي في الطريق دون أن يظن أن قدميه وحدهما تحملاه.

إنها الكلمة التي تعلم الإنسان أن بين السعي والوصول سرًّا لا يملكه إلا الله. فكم من إنسان سعى ولم يصل، وكم من إنسان بلغته رحمة الله ما لم تبلغه قوته. وكم من باب اجتمعت للعبد أسبابه ثم بقي مغلقًا، وكم من باب لم يخطر له على بال ثم فتحه الله من حيث لم يحتسب.

حين تقول لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنك تخلع عن نفسك دعوى الاستقلال، لكنك لا تخلع عنها المسؤولية. تعترف بأنك لا تستطيع أن تتحول من حال إلى حال، ولا أن تخرج من ضعف إلى قوة، ولا من معصية إلى طاعة، ولا من ضيق إلى فرج، إلا بإعانة الله وتوفيقه.

أنت لا تقول: لا أستطيع. بل تقول: لا أستطيع وحدي. وبين العبارتين مسافة عظيمة؛ فالأولى قد تكون بابًا لليأس، أما الثانية فهي باب للاستعانة. الأولى تغلق الطريق، والثانية ترفعه من الأرض إلى السماء.

ما أكثر ما يتعب الإنسان لأنه يطالب نفسه بأن تكون قادرة على كل شيء.. يريد أن يضمن المستقبل، ويحسن الاختيار دائماً، ويمنع الخسارة، ويحفظ من يحب، ويتحكم في قلوب الناس. فإذا عجز عن شيء من ذلك، خاصم نفسه وحملها من اللوم ما لا تحتمل.

لكن الحوقة لا تجعل الإنسان أقوى من طبيعته البشرية؛ بل تعيده إليها. تقول له في رفق: أنت عبد محدود، ولست رباً مدبراً. عليك السعي، وليس عليك تدبير الكون. عليك أن تطرق الباب، وليس عليك أن تأمره أن يفتح. عليك أن تبذر البذرة وتسقيها، أما إنباتها فليس إليك. إن الحوقة أكثر من جملة محفوظة؛ إنها طريقة في رؤية النفس، وفهم الأسباب، واستقبال الأقدار. هي عبودية كاملة تختصرها كلمات معدودات: لا أملك نفسي إلا بما ملكني الله، ولا أتحرك إلا بما أقدرني عليه، ولا أثبت على خير إلا بتثبته، ولا أنجو من شر إلا بحفظه.

هذا الكتاب رحلة إلى داخل هذه الكلمة: ماذا تنفي، وماذا تثبت؟ ماذا تهدم في النفس، وماذا تبني فيها؟ كيف تصبح كزاً من كنوز الجنة، وكيف تحمل قلباً أرهقته الحياة، وكيف تجمع بين تمام الافتقار وكال العمل؟

إننا لا نحتاج إلى أن نجعلها وصفة سحرية تحقق كل ما نشتهي؛ فهي أعظم من أن تكون خادمة لرغباتنا. إنها تعيد رغباتنا وأعمالنا ومخاوفنا إلى موضعها الصحيح تحت مشيئة الله وحكمته.

ومن هنا تبدأ الرحلة: أن تقولها لا لتفر من مسؤوليتك، بل لتقدر عليها بالله؛ ولا لتترك الطريق، بل لتعرف بمن تمشي فيه؛ ولا لتتخلص من ضعفك، بل لتضع ضعفك بين يدي القوي.

الفصل الأول

الذكر حياة القلب الخفية

قد يعيش الإنسان بين الناس حاضر الجسد، غائب القلب. يتحدث ويعمل ويقضي شؤونه، بينما في داخله شيء يتبدد ببطء. تزدحم حوله الأصوات، لكن روحه لا تسمع ما يطمئنهما. تتكاثر في يديه أسباب العيش، وتقل في قلبه أسباب الحياة.

إن القلب قد يمرض وهو لا يشكو ألماً محسوساً، وقد يجوع وصاحبه لا يشعر بالجوع. وجوع القلب لا يشبعه المال ولا ترويه الشهرة؛ لأنه خلق لمعرفة الله، فإذا ابتعد عنه ظل يفتش في الأشياء عن سكنية ليست فيها.

ولهذا كان الذكر حياة القلب. قال الله تعالى: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾. ولم يقل إن القلوب لا تحزن ولا تخاف؛ فالطمأنينة ليست غياب الألم، وإنما وجود السند في أثنائه. قد يكون القلب مطمئناً وعين صاحبه تدمع، وقد يمشي الإنسان في طريق لا يعرف نهايته، ومع ذلك لا يشعر أنه تائه؛ لأنه يعرف من يقوده.

فالذكر لا يعزل المؤمن عن إنسانيته، بل يحفظ إنسانيته من الانهيار. لا ينتزع منه الحزن، وإنما ينتزع من الحزن سلطانه المطلق عليه. ولا يمنعه من الخوف، وإنما يذكره بأن فوق ما يخافه رباً يملك الأمر كله.

وحين يذكر العبد ربه، فإنه ينقذ نفسه من النسيان. فالإنسان لا يضل دائماً لأنه يجهل الحقيقة، بل قد يضل لأنه يغفل عنها. يعرف أن الله رازقه، ثم يرتجف كأن رزقه بأيدي الناس. ويعرف أن الأمر لله، ثم يتصرف كأن الكون ألقى كله على كتفيه.

يأتي الذكر ليعيد الحقائق من هامش الوعي إلى مركز القلب. كلما قال العبد سبحان الله، تزه ربه عن ظنونه الناقصة. وكلما قال الحمد لله، رد النعم إلى واهبها. وكلما قال الله أكبر، صغرت في قلبه الأشياء التي كادت تستولي عليه. أما حين يقول لا حول ولا قوة إلا بالله، فإنه يعيد قدرته نفسها إلى خالقها.

هنا تظهر خصوصية الحقولة؛ فهي تمس أصلاً من أعمق أصول اضطراب الإنسان: اعتقاده الخفي بأنه يجب أن يكون مسيطراً على كل شيء. يحب القدرة لأنها تمنحه شعوراً بالأمان.

يحب أن يفهم ما يحدث، ويتوقع ما سيأتي، ويملك من الوسائل ما يدفع به ما يكره. وليس في هذا مذمة؛ فقد أمره الله بالسعي، لكن الخلل يبدأ حين تنتقل الأسباب من يده إلى قلبه.

تأتي الحوقلة فترده إلى التوازن: اعمل، ولكن اعلم أن قدرتك عطية. خطط، ولكن لا تنوهم أن خطتك تحيط بالغيب. ثق بما منحك الله من مواهب، ولكن لا تفصلها لحظة عن واهبها. خذ بالأسباب، واترك في قلبك مكاناً واسعاً لمشيئة الله.

قد تقول الحوقلة بينما أنت في داخلك ما تزال متكئاً على قوتك، غاضباً لأن الحياة لم تخضع لخطتك. ولا يعني ذلك أن تترك الذكر حتى يحضر قلبك؛ فاللسان قد يوقظ القلب إذا داوم وصدق. لكن جاهد لتسمع ما تقول، وألا تجعل الذكر حركة صوتية لا تبلغ موضع خوفك.

قلها ببطء: لا حول. أي لا تحول لي من حال إلى حال باستقلالي، ولا ثبات على طاعة ولا نجاة من معصية إلا أن يعينني الله. ولا قوة. أي ليست صحي ولا معرفتي ولا إرادتي ضماناً مستقلاً يكفيني. إلا بالله. وهنا يفتح الباب؛ فالحوقلة لا تنتهي بالنفي، بل بالإثبات. لا تترك عارياً أمام عجزك، بل توصلك إلى القوة التي لا يعجزها شيء.

تأمل موضعها في جواب المؤذن حين يقول حي على الصلاة، حي على الفلاح. إنها دعوة إلى العمل، ومع ذلك يجيب السامع: لا حول ولا قوة إلا بالله؛ كأنه يقول: سمعت النداء وعرفت الطريق، لكنني لا أنهض إلى طاعتك يا رب إلا إذا أعنتني عليها.

ومن هنا تصبح الحوقلة دعاء وإن لم تأت في صورة الطلب. ظاهرها خبر، وباطنها سؤال. أنت تخبر عن عجزك، لكن قلبك يقول: يا رب، فلا تكلني إلى نفسي، ولا تحرمني من عونك. ولا تظهر قيمة الذكر في أوقات الشدة وحدها. المؤمن يبدأ بالله، ويمضي بالله، وينتهي إلى الله. يستعين به قبل العمل، ويمجده بعد تمامه، ويلجأ إليه عند تعثره. يقول الحوقلة عند النجاح، لأن حاجته إليها بعد النجاح لا تقل عن حاجته إليها عند الفشل؛ فهو يحتاج إلى الله كي ينجو من العجب كما يحتاج إليه كي يخرج من الانكسار.

كل ذكر يرد القلب إلى الله، أما الحوقلة فترد إلى الله قدرة الإنسان نفسها.

الفصل الثاني

ماذا نقول حين نحول

ليست عظمة الكلمات بكثرتها، وإنما بما تحمله من حقائق. وقد يضع الله في جملة قصيرة من المعاني ما لا تستوعبه صفحات؛ حتى تمر بها الألسنة خفيفة، بينما لو استقرت في القلوب غيرت نظرتها إلى النفس والحياة والقدر.

يدور معنى الحول حول الحركة والتحول والانتقال من حال إلى حال. فليس المقصود أنك لا تتحرك بجسدك أو لا تختار بإرادتك، وإنما أنك لا تملك تحولاً مستقلاً عن مشيئة الله وإعانتته.

لا تحول لك من الجهل إلى العلم إلا أن يعلمك الله، ولا من الغفلة إلى اليقظة إلا أن يوقظك، ولا من المعصية إلى الطاعة إلا أن يعينك، ولا من الخوف إلى الأمن إلا أن يسكن قلبك، ولا من الضعف إلى الثبات إلا أن يمدك بقوة من عنده.

قد يعرف الإنسان الصواب معرفة واضحة، ثم يعجز عن اتباعه. وقد يرى خطر الذنب ويعرف عاقبته، ثم يعود إليه. وقد يسمع الموعدة ويعزم على التغيير، ثم يعود في الغد إلى عاداته القديمة. وهنا يدرك أن معرفة الطريق لا تكفي للسير فيه.

إننا لا نفتقر إلى الله عند النتائج وحدها، بل نفتقر إليه عند البدايات أيضاً: كي نزيد الخير، ثم نختاره، ثم نقدر عليه، ثم نثبت فيه، ثم يقبل منا. نحن محاطون بالافتقار من أول الخطوة إلى آخرها.

أما القوة فهي الاستطاعة التي يقع بها الفعل ويحتمل بها الثقل. وللإنسان قوة حقيقية أودعها الله فيه، لكنها قوة مخلوقة محدودة متقلبة. يصبح المرء قوياً ثم يضعف، صحيحاً ثم يمرض، عازماً ثم تفتر عزيمته. وهذا التقلب يكشف له أنه لا يملك قوته ملكاً مطلقاً.

ليست الحقولة إنكاراً لما وهبنا الله من قدرات، فالإنسان يرى أثر إرادته وعمله ويحاسبه الله على اختياراته، وإنما هي إنكار لاستقلال هذه القدرة عن خالقها. فأنت قوي بما قواك الله، وقادر بما أقدرك، وعالم بما علمك، وثابت بما ثبتك.

وما أسرع ما يتحول العطاء إلى فتنه حين ينسى الإنسان الواهب. قد ينجح فيقول في سره: أنا الذي أحسنت التدبير، ويكرر أنا حتى تضيق في قلبه مساحة الشكر. وعندئذ يحتاج إلى الحوقلة وهو في ذروة قوته أكثر مما يحتاج إليها وهو في قاع ضعفه؛ فالضعف قد يقوده إلى الله، أما القوة فقد تغريه بالاستغناء.

ثم تأتي إلا بالله لتكتمل رحمة الكلمة. لم تقل الحوقلة إن الإنسان لا حول له ولا قوة ثم سكنت؛ لأنها لو فعلت لألقت في بئر العجز. لكنها نقلته من ضعفه المحدود إلى الاستعانة بالقوي الذي لا تحد قدرته.

أنا لا أستطيع وحدي، ولكنني لست وحدي. لا أملك تدبير النتائج، لكنني أعبد من يملكها. لا أعرف ما ينتظرنني، لكن الله يعلمه. لا أستطيع حماية نفسي من كل شر، لكنني أستودعها من لا تضيع ودائعها.

وليس معنى ذلك أن يقع كل ما نريد. قد يطلب الإنسان القوة ليضي في طريق، فتكون رحمة الله أن يصرفه عنه. وقد يسأله فتح باب، فيعيّنه بأن يغلقه؛ لأن وراءه ما لا يراه. وقد يظن أن العون هو زوال الشدة، بينما يكون العون أن يمنحه الله قلباً ثابتاً حتى يعبرها. فليس كل عون تغييراً للظرف؛ قد يكون تغييراً فيك.

في الحوقلة نفيان يعقبهما إثبات: نفي الحول والقوة عن الاستقلال، ثم إثبات الاستعانة بالله. فهي تفرغ القلب من الاعتزاز بالأسباب، ولا تتركه فارغاً بل تملؤه رجاءً في مسببها، وتجعل العجز باباً يعبر منه إلى ربه.

قد يظن بعض الناس أن تفويض الأمر إلى الله يعني ترك الأسباب. غير أن الحوقلة ترفض هذا الفهم؛ لأن الاستعانة لا تكون إلا على عمل. حين تقول لا قوة إلا بالله، فأنت تطلب القوة لتفعل، لا لتعقد، وتستمد العون لتسير، لا لتبقى في مكانك.

التوكل عملان متكاملان: عمل الجوارح بالأسباب، وعمل القلب بالاعتماد على الله. فإذا عطلت الجوارح كان ذلك توكلاً، وإذا تعلق القلب بالأسباب اختل التوكل. ازرع، وتعلم، وخطط، واستشر، ثم قل لا حول ولا قوة إلا بالله.

في الحوقلة توحيد؛ لأن القوة مردودة إلى الله. وفيها عبودية؛ لأن العبد يعترف بفقره. وفيها توكل ودعاء وشكر وصبر ورجاء وتواضع. عند الذنب هي استعانة، وعند الطاعة افتقار، وعند النجاح تواضع، وعند الفشل رجاء، وعند الخوف توكل، وعند المصيبة تسليم.

الفصل الثالث كنز من كنوز الجنة

كان النبي صلى الله عليه وسلم مسافراً مع أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، فقال له: يا عبد الله بن قيس، ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة؟ قال: بلى يا رسول الله. فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله. رواه البخاري ومسلم.

لم يسمها النبي صلى الله عليه وسلم كلمة نافعة فحسب، ولا ذكراً فاضلاً فحسب، وإنما سماها كنزاً من كنوز الجنة. والكنز هو الشيء النفيس المدخر لحاجة عظيمة. قد يكون قريباً من الإنسان، لكنه لا ينتفع به حتى يعرف قدره ويستخرجه. وكذلك الحوقلة: قريبة من اللسان، يسيرة النطق، لكنها عند الله كنز.

وما أعجب المسافة بين خفتها على اللسان وثقل معناها في الميزان. يستطيع الصحيح والمريض والمسافر والمقيم والغني والفقير أن يقولها. وقد يعجز الإنسان عن أعمال كثيرة لمرض أو ضعف، لكنه لا يعجز عن تحريك لسانه وقلبه بهذه الكلمة.

هي كنز لأنها تجمع التوحيد والتوكل والافتقار في عبارة واحدة، ولأنها تحرر القلب من أثقل أوهامه: أن عليه أن يحمل العالم وحده. وهي كنز لأنها تحمي العبد في حال القوة وحال الضعف؛ فإذا قوي منعه من العجب، وإذا ضعف منعه من اليأس.

ومن المواضع العجيبة التي شرع فيها قول الحوقلة جواب المؤذن عند قوله حي على الصلاة، حي على الفلاح؛ فقد ثبت في صحيح مسلم أن السامع يقول عندهما: لا حول ولا قوة إلا بالله. تأمل هذا التناسب. المؤذن يدعوك إلى عمل: تعال إلى الصلاة، تعال إلى الفلاح. وحين يطلب منك النهوض، تقول لا حول ولا قوة إلا بالله. كأنك تعترف: يا رب، لقد بلغني النداء، لكن بلوغ الصوت إلى أذني لا يكفي؛ فأبلغ به قلبي، وأعن جوارحي على الإجابة.

وإذا كانت الصلاة لا ينهض إليها العبد إلا بإعانة الله، فكيف بما دونها من شؤون حياته؟ قد يعرف الإنسان فضل الطاعة ثم لا يجد في قلبه همة لها؛ لأن العلم بالطريق شيء، والتوفيق للسير فيه شيء آخر.

وثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أن من قال عند خروجه من بيته: بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، يقال له: هديت وكفيت ووقيت، ويتنجى عنه الشيطان. رواه أبو داود والترمذي.

ما أبجل أن يبدأ الإنسان خروجه بهذه المعاني: باسم الله يبدأ، فلا تكون خطوته مقطوعة عن ربه. وعلى الله يتوكل، فلا يحمل وحده هم الطريق ونتائجه. وبالله يستمد حوله وقوته، فلا يغتر بصحته ولا معرفته.

يخرج الإنسان من بيته ولا يدري ما ينتظره. قد يرسم ليومه خطة دقيقة، ثم يقع ما يغيرها كلها، إن باب البيت الذي يغلقه خلفه هو الحد الفاصل بين عالم يظنه مألوفاً، وعالم لا يعلم ما خبيئ له فيه. لهذا يضع يومه كاملاً بين يدي الله قبل أن تبدأ تفاصيله.

ولا تعني هذه الكلمات أن مكروهاً لن يقع، فالعبد قد يقول الذكر ثم يبتلى، ولكن الحفظ والكفاية والهداية أوسع من تصوراتنا. قد تكون الوقاية صرف بلاء لم نره، وقد تكون لطفًا ينزل أثناء البلاء، وقد تكون هداية إلى التصرف الصحيح حين يقع ما نكره.

وفي الحديث الوارد في متابعة المؤذن رب الوعد على أن يقول السامع الكلمات من قبله. وليس معنى ذلك أن من غفل قلبه يترك الذكر، وإنما أن يجاهد كي لا يبقى الذكر حبيس اللسان. فالألفاظ أبواب، والمقصود أن يدخل القلب منها.

ومن تعظيم السنة ألا ننسب إلى الذكر ما لم يثبت، وألا نحوله إلى وصفة دنيوية مضمونة النتائج. لا يقول المؤمن: سأذكرك بشرط أن تعطيني الصورة التي أريدها، وإنما يذكر الله لأنه ربه، ويستعين به لأنه عبده، ويسأله الخير ثم يرضى بحكمته.

قد تقول الحوقلة فيفتح الله لك الباب الذي طلبت، وقد يصرف قلبك عنه، أو يؤخره حتى تنضج لاستقباله، أو يعوضك بما هو خير منه. وفي الأحوال كلها لم تضع الحوقلة؛ لأنها لم تكن ثمنًا لشراء رغبة، بل عبادة تصل بها قلبك بالله.

يكفينا في فضلها ما صح: أنها كنز من كنوز الجنة. وهل يحتاج الكنز الذي شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى روايات لا تثبت حتى نزداد به يقينًا؟

كنوز الدنيا تتركها وراءك، أما هذا الكنز فتحملة في صدرك. لا يراه الناس ولا يستطيع أحد أن يسلبه منك. قد تفقد مالك وتضعف صحتك وتغير منزلتك في أعين الخلق، لكن يبقى لك لسان يستطيع أن يقول، وقلب يستطيع أن يفتقر: لا حول ولا قوة إلا بالله.

الفصل الرابع عبودية الافتقار

لا يحب الإنسان أن يرى نفسه عاجزاً. يستطيع أن يتحدث عن ضعفه بلسانه، لكن لحظة العجز الحقيقي تظل ثقيلة؛ لأنها تنتزع منه الصورة التي صنعها لنفسه: صورة الإنسان القادر على ضبط حياته وحماية من يحب وفتح الأبواب التي يريد.

حين يقع ما لا يستطيع دفعه، لا يتألم من الواقعة وحدها؛ بل يتألم لأن قدرته لم تسعفه. وحين يفشل بعد اجتهد طويل، يجرحه اكتشاف أن الإرادة الصادقة لا تكفي دائماً لصناعة النتيجة. هنا يصبح العجز امتحاناً للعقيدة، لا للطاقة فقط.

إما أن يرى الإنسان مجزه نهاية له فينهار، وإما أن يراه دليلاً يقوده إلى الله فيفتقر. النهار يرى ضعف نفسه ولا يرى شيئاً وراءه، أما المفتقر فيرى ضعفه، ثم يرفع بصر قلبه إلى قوة الله. والحوالة هي الكلمة التي تنقله من الأول إلى الثاني.

لا يقول أكثر الناس بألسنتهم إنهم مستغنون عن الله، لكن الاستغناء قد يختبئ في السلوك. يظهر حين يطمئن الإنسان إلى المال كأنه لا يزول، وإلى الصحة كأنها عهد دائم، وإلى الناس كأن قلوبهم في يده، وإلى خبرته كأنها تعصمه من الخطأ.

تأتي الحوالة فتجمع عالم العبادة وعالم الحياة في حقيقة واحدة: أنت محتاج إلى الله في صلاتك وتجاركتك، وفي طاعتك وصحتك، وفي قرارك، وفيما تعلم وما تجهل. لا توجد منطقة في حياتك تستغني فيها عنه.

لنفس ميل خفي إلى رؤية ذاتها. إذا نجحت قالت أنا فعلت، وإذا ثبتت على طاعة نظرت إلى المتعثرين من موضع عال، كأنها صنعت هدايتها بنفسها. فإذا قال العبد لا حول ولا قوة إلا بالله بصدق، تراجعت أنا من صدر المشهد، وعاد الفضل إلى صاحبه.

لا ينكر الإنسان جهده، بل يراه حلقة في سلسلة من النعم: عقل وهبه الله، وجسد أعانه، ووقت وفرصة وقلوب تعاونت معه. وحين يستقر هذا المعنى، يصبح النجاح باباً للشكر لا للعجب، والتفوق مسؤولية لا وسيلة لاحتقار الآخرين.

ولا تقتل الحوالة الثقة بالنفس. هناك ثقة تقول: أنا أقدر لأنني لا أفضل، وهذه يكسرها أول إخفاق. وهناك ثقة تقول: أنا أعمل بما وهبني الله، وأتعلم إذا أخطأت، وأستعين به إذا ضعفت، ولا تنتهي قيمتي إذا لم أنجح. هذه ثقة المؤمن.

الثقة بالله أعمق من الثقة بالنفس؛ لأن النفس تتغير، أما الله فلا يعجز. والنفس تجهل، أما علم الله فلا يحده شيء. والنفس قد تحون عزيمتها، أما عون الله فلا يخيب من صدق في طلبه، وإن جاء العون على غير الصورة التي طلبها.

قد يكون أعظم ما يقع لك أن تعجز، لا لأن العجز مطلوب لذاته، ولكن لأنه قد يهدم الجدار الذي حال بينك وبين الافتقار. كم من إنسان لم يعرف صدق الدعاء إلا حين فقد كل وسيلة، ولم يذق معنى التوكل إلا حين خذلته الأشياء التي اتكأ عليها.

لا تطلب من نفسك أن تكون إلهاً: أن تعرف المستقبل، وتحبي أحبائك من كل أم، وتحكم في فهم الناس لك، وتمنع الخيانة والمرض، وتضمن أن كل قرار سينتهي إلى الصواب. أي إنسان يستطيع هذا؟

تستطيع أن تنصح من تحب، ولا تستطيع أن تزرع الهداية في قلبه. تستطيع أن تعتذر، ولا تستطيع أن تجبر الآخر على مسامحتك. تستطيع أن تداوى، ولا تستطيع أن تأمر الشفاء أن ينزل. تستطيع أن تحسن، ولا تستطيع أن تضمن الوفاء.

حين تخالط بين مسؤوليتك وقدرة الله، تعيش مثقلاً بما ليس لك. وتأتي الحوالة لتعيد الحدود: افعل ما تستطيع، ثم لا تعذب نفسك بما لا تستطيع. أنت مسؤول عن صدقك، لا عن تصديق الناس لك؛ وعن بذل السبب، لا عن خلق النتيجة.

ليس كل ما تعجز عنه تقصيراً، وليس كل ما يفوتك دليلاً على أنك لم تبذل ما يكفي. هناك أشياء تفوت لأن الله لم يكتبها، وأبواب تغلق لأن الخير وراء غيها، وأقدار لا تمنعها حيلة.

حين يعرف الإنسان ما عليه وما ليس عليه، يخف حمله. يعمل دون أن يعبد النتيجة، ويحب دون أن يتوهم امتلاك من يحب، ويخطط دون أن يتعامل مع خطته كقدر مكتوب، ويدعو دون أن يشترط على الله موعد الإجابة وصورتها.

إن أقوى الناس ليس من لا يعجز؛ فلا أحد لا يعجز. وإنما أقواهم من يعرف أين يضع عجزه حين يعجز.

الفصل الخامس حين تضيق النفس

للخوف صوت مرتفع. إذا دخل القلب بالغ في تصوير الخطر، وجمع الاحتمالات المظلمة، ثم قدمها للإنسان كأنها حقائق وقعت. يجعله يعيش الألم قبل مجيئه، وربما عاشه مرات كثيرة مع أن شيئاً منه لم يقع.

أما الطمأنينة فصوتها هادئ. لا تنكر الخطر، لكنها تضعه في حجمه. لا تعد الإنسان بأن أيامه ستكون خالية من المكاره، لكنها تذكره بأن المكاره نفسها واقعة تحت سلطان الله. وفي المسافة بين صخب الخوف وهدوء اليقين تأتي الحوقلة.

القلق محاولة مرهقة للتحكم في شيء لم يقع. يقول العقل لصاحبه: فكر أكثر، ربما استطعت أن تمنع كل احتمال سيئ. فيفكر الإنسان ويعيد التفكير، لا لأنه وجد حلاً جديداً، بل لأنه يخشى أن يكون توقعه تقصيراً. وهكذا يتحول التفكير من أداة لحل المشكلة إلى مشكلة أخرى.

لا تطلب الحوقلة من الإنسان أن يكف عن التخطيط، لكنها تضع حداً بين التخطيط ومحاولة امتلاك الغيب. اسأل نفسك: ما الذي أستطيع فعله الآن؟ فإذا عرفته فافعله. وما خرج عن قدرتك، فلا تجعل التفكير المتكرر عبادة تقدمها لوهم السيطرة.

لا حول لي على الغد حتى يأتي، ولا قوة لي على تدبير كل احتمالاته، لكنني أملك بإذن الله أن أحسن عمل اليوم، وأن أفوض ما لا أستطيع إلى من يعلمه ويملكه.

ما تحتاج إليه غداً قد يخلقه الله فيك غداً. فلا تقس قدرتك على مصيبة متخيلة بقوتك الحالية، ثم تجزم بأنك لن تحتملها؛ ففعل الله إن قدرها أنزل معها من الصبر ما لم يكن عندك قبلاً. إن كثيراً من مخاوفنا تقوم على معادلة ناقصة: تخيل البلاء حاضراً، ونسى أن تخيل معه معونة الله.

المجهول مرعب؛ لأنه مساحة فارغة تملؤها النفس بما تخشاه. وكم من أمر خافه الإنسان ثم جاء أهون مما ظن، وكم من باب ظن وراءه الهلاك فإذا وراءه بداية جديدة، وكم من ليلة توهم أنها لن تنتهي ثم رآها بعد أعوام طريقاً قاده إلى نضجه.

الحقولة لا تخبرك بما سيقع، لكنها تخبرك بمن يملك ما سيقع. وهذه المعرفة قد تكون أهم من معرفة التفاصيل. المؤمن لا يحيط بطرق القدر، لكنه يعلم أن الذي يدبر أمره أرحم به من نفسه وأعلم بما يصلحه.

وللقلب إقبال وإدبار، وقد يستيقظ الإنسان يوماً فيجد الطاعة ثقيلة. لا ينتظر أن تشتهي النفس الصلاة حتى يصلي، بل ينهض رغم الثقل ويقول: يا رب، لا قوة لي على عبادتك إلا بمعونتك. وقد تكون الطاعة التي تؤديها وأنت تجاهد فتورك أصدق شاهد على عبوديتك من طاعة حملك إليها النشاط.

وقد تتحول بعض الذنوب مع التكرار إلى طريق مألوف. يندم الإنسان ويعزم على الترك ثم يعود، فيقول له اليأس: لقد حاولت كثيراً ولا فائدة. وهنا يحتاج إلى فهم الحقولة: نعم، أنت ضعيف وحدك؛ ولهذا تقول إلا بالله، لا لتعلن استسلامك للذنوب، بل لتعلن أن معركتك تحتاج إلى عون يتجاوز عزيمتك.

صدق الاستعانة يظهر في أسباب النجاة. لا تقل الحقولة وأنت تفتح للمعصية أبوابها نفسها. إن كان الذنب يدخل من صحبة فابتعد، وإن كان يأتي من شاشة فأغلق طريقه، وإن كان يقوى في الخلوة فغير نظام يومك، وإن احتجت إلى ناصح أو مختص فاطلب مساعدته.

وإذا سقطت فلا تجعل سقوطاً واحداً حجة للبقاء على الأرض. تب واستغفر وخذ بسبب أقوى. ليس أخطر ما في الذنب أن تقع فيه، بل أن يقنعك بأن باب الرجوع أغلق. ما دام الله هو الذي يحول الأحوال، فليست صورتك الحالية قدراً لا يتغير.

وعند الفقد لا تأتي الحقولة لتلوم الإنسان على الحزن. البكاء لا يناقض التوكل، والألم لا يعني ضعف الإيمان. لكنها تمنع الحزن من أن يغلق الأفق كله. تقول للفاقد: لا حول لك في رد ما مضى، ولا قوة لك على حمل هذا الوجد وحدك، فضعه بين يدي الله.

أما الخذلان، فيؤلم لأنه يهدم معنى الثقة. وقد يلوم الإنسان نفسه: كيف لم أر؟ كيف صدقت؟ وتقول الحقولة: لم تكن قادراً على رؤية ما تخفيه القلوب، لأنك بشر. خذ من التجربة حكمتها، ولا تأخذ منها حكماً بأن الجميع خائنون. لا حول لك على قلوب الناس، لكن لك بالله قوة تحمي بها قلبك من أن يتحول الألم فيه إلى قسوة.

وحين تتكرر المحاولات قد يصبح النهوض لمحاولة جديدة أثقل من الفشل نفسه. تأتي الحوقلة لتقول: قوتك ليست مخزونةً مغلقاً إذا نفذ انتهيت. تستطيع أن تطلب مدداً جديداً من الله، وقد يكون المدد خطوة صغيرة أو صبر يوم واحد.

ولا يعني التوكل أن تكرر الطريقة نفسها إلى ما لا نهاية. قد تكون الاستعانة بالله أن يلهمك مراجعة الطريق أو الاعتراف بأن باباً ما ليس لك. بعض الإصرار شجاعة، وبعضه تعلق بصورة واحدة للخير.

والحوقلة غذاء للقلب وعبادة جلييلة، لكنها لا تمنع الاستفادة من العلاج والأسباب. من اشتد عليه القلق أو امتد حزنه حتى عطل حياته، فلا تعارض بين ذكر الله ومراجعة المختص. الطبيب والدواء والمشورة أسباب، والشافي والمعين هو الله.

ربما تقول الحوقلة ويبقى الواقع كما هو، فلا يفتح الباب ولا ينتهي المرض سريعاً. نحن نقيس الأثر غالباً بما تغير حولنا، بينما قد يكون أعظمه ما تغير فينا: نتوقف عن إذلال أنفسنا أمام باب مغلق، أو نتعلم الرضا مع مواصلة العلاج. إنها لا تغير المشهد دائماً، لكنها تصحح موضع القلب داخله.

الفصل السادس

الحقولة في مواقف الحياة

لا تعرف حقيقة المعاني في هدوء التأمل وحده، وإنما حين تنزل إلى ميدان الحياة. من السهل أن يقول الإنسان إنه متوكل ما دامت الأمور تجري كما يريد، لكن حقيقة التوكل تظهر حين تتعطل الأسباب.

أمام باب مغلق، يسعى الإنسان ويتعلم ويعيد المحاولة، ثم يؤله أن يغلق الباب من جديد. ومع تكرار الرفض قد يرى في كل تعثر حِكْمًا على قيمته. فإذا قال لا حول ولا قوة إلا بالله أدرك أنه بذل السبب، لكنه ربما عبد النتيجة في داخله. لا يفتح الذكر الباب بالضرورة في اللحظة نفسها، لكنه يفتح في القلب مساحة لاختيار الله. فيراجع طريقه ويعاود من موضع أهدأ، أو يرى أن الإغلاق نفسه دليل إلى باب آخر.

الحقولة لا تفتح كل باب زبده، لكنها تحررنا من الاعتقاد أن حياتنا تنتهي عنده. وأمام قرار لا تظهر عاقبته، يجمع المرء المعلومات ويستشير ويستخير، ثم يبقى شيء لا تمنحه الحسابات: اليقين بالمستقبل. يريد قراراً لا يحمل احتمال الندم، وهذا لا وجود له في حياة البشر. تقول الحقولة: لست مطالباً بمعرفة الغيب، بل بصدق الاجتهاد. اختر بما ظهر لك، وفوض ما لا تعلم إلى الله، وكن مستعداً للتصحيح إن تبين الخطأ.

وفي مواجهة عادة قديمة، قد ينظر الإنسان إلى خطيئته كأنها اسمه، لا فعل يمكن أن يتغير. يقول له اليأس: هذه طبيعتك. وتقول الحقولة: لو كانت قدرتك وحدها باب النجاة لكان تكرر السقوط نهاية الأمر؛ أما وقد قلت إلا بالله، فلا تجعل ضعفك أكبر من قوة ربك. أغلق منافذ الذنب، واطلب العون، وإذا تعثرت فلا تجعل التعثر هوية.

وبعد نجاح كبير، قد تنهال عبارات الشناء، فتتضخم أنا حتى تحجب رؤية النعمة. تأتي الحقولة فتري الإنسان رحلة النجاح كاملة: عقل وهبه الله، وصحة حملته، ومعلم أرشده، وفرصة لم يصنعها، ومصائب كان يمكن أن تقع فصرفها الله. لا ينكر جهده، بل يظهره بالشكر. ما أحوج الإنسان إلى الحقولة عند النعمة؛ لأن المصيبة تكشف ضعفه، أما النعمة فقد تستره عنه.

وحين يعجز عن إنقاذ من يحب، يبذل ما يستطيع لكنه لا يملك أن ينتزع عنه الألم. وهذا من أقسى أنواع العجز. يفهم بالحوقة أن الحب لا يمنحه قدرة الله. يستطيع أن يكون حاضراً ورحيماً وحسن الرعاية، لكنه لا يملك الشفاء ولا كتابة الأقدار. ومن أصدق صور المحبة أن تبذل كل ما تملك، ثم تستودع من تحب من هو أرحم به منك.

وحين يطول البلاء، تقنعنا اللحظة بأنها أبدية. حين نحزن نظن أننا لن نفرح، وحين يغلق باب نتصور أن الجدار يمتد حول العالم. لكن الحوقة تكسر حكم اللحظة: لا حال يبقى بذاته، ولا شدة تملك أن تخلد نفسها، ولا باب يظل مغلقاً لأن قوته أعظم من قدرة الله.

في كل هذه المواقف تعيد الحوقة الأشياء إلى مواضعها: السبب في اليد، والتوكل في القلب، والنتيجة عند الله. اعمل بما تستطيع، واستعن بالله فيما تعمل، وفوض إليه ما لا تستطيع.

الفصل السابع كيف نحيا بالحوقة

ليس المقصود من قراءة كتاب عن الحوقة أن نضيف إلى ذاكرتنا معلومات، ثم نغلق صفحاته ونعود كما كنا. الكلمة التي وصفها النبي صلى الله عليه وسلم بأنها كنز من كنوز الجنة تستحق أن تخرج من دائرة المعرفة إلى حياة القلب.

قلها بفهم، لا بعجلة. توقف لحظة عند لا حول، واستحضر الحال الذي تريد التحول عنه: ذنباً أو خوفاً أو ضعفاً. وعند ولا قوة استحضر أنك لا تملك وحدك قوة الثبات. ثم قل إلا بالله، واستحضر أن النفي لم يتركك في الفراغ، بل أوصلك إلى الله.

قد لا يستغرق هذا إلا ثواني، لكنها تنقل الذكر من الشفتين إلى القلب. وليس المطلوب أن تتكلف شعوراً، بل أن تفهم ما تقول وتعرض افتقارك على ربك.

وأحي مواضعها النبوية. حين يقول المؤذن حي على الصلاة، حي على الفلاح، قل لا حول ولا قوة إلا بالله مستعيناً على إجابة النداء. وحين تخرج من بيتك قل: بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله. اخرج وقد سلمت يومك لله: طريقك وعملك وما تعرف وما تجهل.

واجعلها رفيقة مواطن عجرك. إذا كنت تضعف أمام غضبك، فقول قبل أن تتكلم. وإذا ثقلت عليك طاعة، فقول ثم انهض. وإذا هاجمتك الأفكار القلقة، فقول واسأل عما تستطيع فعله الآن. وإذا أثنى الناس عليك، فقول في شرك حتى يبقى الفضل لله. وإذا هممت بذنب، فقول وابتعد فوراً عن بابه.

وبعد كل حوقة صادقة اسأل: ما السبب المشروع الذي أستطيع فعله الآن؟ إن كنت مديناً فقد تكون الخطوة تنظيم نفقاتك، وإن كنت مريضاً فراجعة الطبيب، وإن كنت مخطئاً فالاعتذار، وإن كنت حائراً فالاستشارة، وإن كنت عاصياً فإغلاق منفذ المعصية.

لا تجعل لا حول ولا قوة إلا بالله خاتمة للكلام فقط، بل بداية للعمل. فقد يكون العون الذي طلبته محبوباً في الخطوة التي تؤجلها. والتوكل لا يعني أن تنتظر القوة كاملة ثم تتحرك؛ أحياناً يمنحك الله القوة أثناء الحركة.

ولا تقلها بروح الاعتراض أو اليأس. روح الحقولة رجاء، لا قنوط. هي اعتراف بأن قدرتك انتهت، لا بأن قدرة الله انتهت. فإذا قلتها، فلا تغلق قلبك بعدها؛ افتحه لاحتمالات لطف الله.

وأكثر منها دون أن تنسب إلى عدد أو وقت فضيلة لم تثبت. لا تجعل انشغالك بالعدد يحجبك عن المعنى. العدد وسيلة للداومة، وليس روح الذكر. والأكل أن تجمع بين كثرة الذكر وحضور القلب بحسب استطاعتك. وإذا غفل قلبك فلا تترك؛ أعده في رفق، فالقلوب تشرد، والذكر جبل تعيدها به.

ويمكن أن تبدأ بسبعة أيام من التدريب على المعنى. في اليوم الأول استحضر تفسير الحقولة كلما قلتها. وفي الثاني اختر طاعة تثقل عليك واستعن بالله ثم بادر إليها. وفي الثالث اكتب الأمر الذي يقلقك، وافصل بين ما تستطيع وما لا تستطيع. وفي الرابع حدد منفذ ذنب متكرر وأغلقه. وفي الخامس تأمل نعمة أو نجاحاً، وتذكر الأسباب التي هيأها الله لك. وفي السادس ضع بين يدي الله وجعاً لا تستطيع تغييره. وفي السابع اختر أمراً استنفدت فيه السبب، وتوقف عن استنزاف قلبك في التحكم بنتيجته.

واسأل نفسك كل يوم: ما الأمر الذي كشف عجزتي؟ وما السبب الذي أستطيع فعله؟ وما النتيجة التي ينبغي أن أفوضها إلى الله؟ وكيف تغير موضع الأمر في قلبي حين حوّلته؟ في البداية قد تذكّر الحقولة بعد الموقف. لا تحتقر هذا الانتباه المتأخر، فهو بداية. ومع المداومة ستذكر أثناء الموقف، ثم قد تستحضرها قبله. وهكذا ينتقل الذكر من علاج بعد الغفلة إلى نور يسبق الخطوة.

هذا هو العيش بالحقولة: ألا تنتظر سقوطك الكامل كي تطلب القوة، بل تبدأ بالله، وتمضي بالله، وتنتهي إلى الله.

لست وحدك أمام ثقل الحياة

في نهاية هذه الرحلة، لا نخرج من الحوالة بإنسان لا يضعف، بل بإنسان يعرف إلى أين يذهب حين يضعف. لا نخرج بإنسان يملك السيطرة على حياته، بل بعد تحرر من وهم السيطرة، وعرف أن كرامته ليست في أن يكون قادراً على كل شيء، وإنما في أن يكون صادق الافتقار إلى من يقدر على كل شيء.

لا حول ولا قوة إلا بالله كلمة التحرر: تحررك من عبادة الأسباب دون أن تدعوك إلى تركها، ومن الغرور عند النجاح دون أن تنكر جهدك، ومن اليأس عند الفشل دون أن تعفيك من المراجعة، ومن حمل الغيب دون أن تبيع لك إهمال الحاضر.

إنها تقيم في القلب ميزاناً دقيقاً: عليك العمل، والله النتيجة. عليك الصدق، والله التوفيق. عليك أن تطرق الباب، والله أن يفتحه في الوقت والصورة اللذين يعلمهما خيراً لك.

لكن أعظم ما تصنعه ألا تبقى معلومة تعرفها، بل أن تصبح عينا ترى بها الحياة: ترى قدرتك نعمة لا ملكاً مستقلاً، وضعفك باباً لا فضيحة، والأسباب وسائل لا أرباباً، والأقدار تدبيراً وإن غابت الحكمة، وتغير الأحوال ممكناً ما دام أمرها بيد الله.

ربما دخلت إلى هذه الصفحات وأنت تحمل أمراً أثقل قلبك: باباً لم يفتح، أو دعاء تأخرت إجابته، أو ذنباً أتعبك تكراره، أو خوفاً من غد لا تعرفه، أو إنساناً تحبه ولا تملك أن ترفع عنه ألمه.

لا تضمن الحوالة أن يأتي كل شيء كما تريد؛ فالذكر ليس وسيلة نلزم بها الله الصورة التي اخترناها. لكنها تذكرك بأن ما عجزت عنه لا يعجزه، وأن الطريق الذي تجهل نهايته معلوم عنده، وأن القوة التي نفذت منك ليست آخر قوة في الوجود.

فلا تجعل الحوالة كلمة تنتظر بها المصائب وحدها. قلها في الرخاء حتى تعرف طريقها في الشدة. قلها عند بداية العمل كما تقولها عند تعثره، وعند النعمة كما تقولها عند الفقد، وحين تنهض إلى الطاعة، وحين تقاوم المعصية، وحين يثني عليك الناس.

قلها ثم اعمل. قلها ثم اعتذر إن أخطأت، وارجع إن ضللت، واستشر إن تحيرت، وتعالج إن مرضت، وابدأ من جديد إن سقطت. لا تجعلها ستاراً للعود، بل روحاً للسعي.
وإذا بلغت حداً لا تستطيع تجاوزه، فلا تحطم نفسك عليه. قف عند حدود عبوديتك، وسلم الأمر إلى ربك. لقد خلقك إنساناً محدوداً، ولم يطالبك أن تكون إلهاً يدير العالم.
ستأتي عليك أيام تشعر فيها أن الحياة أثقل من قلبك، وربما نفدت الكلمات ولم يبق فيك إلا صمت كامل. في تلك اللحظة لا تطلب من نفسك خطاباً طويلاً. قل فقط: لا حول ولا قوة إلا بالله.

قلها باعتراف العاجز، ورجاء المؤمن، وثقة من يعلم أن وراء ضعفه قوة لا تنفد. ثم خذ الخطوة التي تستطيعها. فإن فتح الطريق، فاحمد الله ولا تغتر. وإن بقي مغلقاً، فلا تيأس. وإن تعثرت، فانهض بالله. وإن بلغت، فاعلم أن الوصول منه وإليه.
لا تطلب من قلبك أن يكون أقوى من كل شيء، علمه فقط أن يعرف القوي، وأن يقول كلما أثقلته الحياة: لا حول ولا قوة إلا بالله.